

## الوطنية

### في شعر حافظ إبراهيم

١

لا نكاد نغضى في القرن التاسع عشر حتى نجد مصر تشعر بنفسها شعوراً قوياً ، فهي تعدّ جيشها ، وتمد ذراعها تريد أن تستولى على الشام وبلاد العرب ، وهي ترسل بعوثها إلى أوروبا تريد أن تمتلك لنفسها بعض ما هناك من ثروات عقلية وعلمية .

ثم يدور بها الزمن ، ويكون عصر إسماعيل ، وتكثر ديونته ، وتسوء مالية الدولة ، ويرى ذلك المصريون ، فيودون لو غيّرّوه أو لو غيرّ الله ما بنفس إسماعيل ، ولكنه يمضى في سياسته الطائشة مع بطانته التي كانت تمد له في أسباب هذه السياسة .

وثارت مصر بقيادة عرابي لأول عهد ابنه توفيق ، تريد أن ترمّ الثغور قبل أن تتسع ، وأن يصبح السلطان لها ولأبنائها . واستعان توفيق في إخماد هذه الجذوة الوطنية لشعبه وإطفائها بيد الأجنبي ، بل بسيفه ومدافعه ، فكان الاحتلال الإنجليزي المشؤم .

وداست أقدامُ الإنجليز ثرى الوطن ، ووطئت أجماده التاريخية ، واستهانت بكل مقدماته ، واستراح الحاكم الظالم للمحتل ، لأنه مكّن له في ظلمه ، ولم تسعف الشعب ظروفه ، فطال أمد الاحتلال وأندس في كيان الحكم كله .

والأمة المصرية تنثُ مثقلة به ، وتشكو شكوى تجرى في عروقها ودمائها ، فهي تذكر تاريخها القديم ، بل تذكر تاريخها في مفتح القرن التاسع عشر

حين كانت خيولها تصهّلُ في مكة والمدينة وفي الشام ومشارف الأناضول .  
ثم تذكر ما انتهت إليه من هذا الانهيار ، أو قل من هذا الاحتلال الذي  
أحال حياتها ظلمات من اليأس والهوان .

وفي هذه الظلمات سبّبَ حافظ إبراهيم لأسرة متوسطة أو دين المتوسطة ،  
وتأزرت عوامل مختلفة ، لتجعله يشعر بآلام شعبه ، إذ توفي أبوه وهو لا يزال في  
الرابعة من عمره ، فكفله خاله ، وأرسل به إلى الكتّاب ، ثم إلى المدرسة ، ولم  
يُظهر التلميذ نبوغاً ، فضاقت به خاله الذي انتقل إلى طنطا مهندساً للتنظيم .  
وعمل حافظ هناك في مكاتب بعض المحامين ، فكان يكتب لهم ، ثم التحق  
بالمدرسة الحربية وتخرج فيها سنة ١٨٩١م ، واشتغل ملازماً في وزارة الحربية ،  
ونُقل إلى وزارة الداخلية ، ثم رجع إلى الحربية ، وضمّ إلى الحملة الأخيرة على  
السودان ، وكانت بقيادة اللورد كشر . فاشترك في ثورة عليه مع بعض الضباط ،  
وحوكم وأُحيل إلى الاستيداع في سنة ١٩٠٠ ولم يلبث أن طلب إحالته إلى  
المعاش في سنة ١٩٠٣ وهو في نحو الثلاثين من عمره ، فأجيب إلى طلبه .

وعلى هذا النحو لم يكن حافظ سعيداً في مولده ولا في تلمذته ولا في وظيفته ،  
بل كان شقيماً بذلك كله . فالتأم في نفسه شقاؤه بشقاء أمته . ورأى من  
أثر الاحتلال في خروجه من وظيفته ما وضح له أثره في أمته ، فهو طريد كشر  
من الجيش ، وأمته طريدة الإنجليز من حقوقها الوطنية وحقائقها الإنسانية .

وكان ، وهو في السودان ، قد راسل الشيخ محمد عبده شعراً ونثراً ،  
فلما اعتزل الحكومة التحق بدروسه ومجالسه ، وأخذ يتعرف عن طريقه على  
الطبقة الممتازة من المصريين ، أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين  
وحسن عاصم ومحمود سليمان . وكانت بمصر في ذلك الوقت ثلاث طبقات :  
طبقة الترك الأرستقراطية ، ثم هذه الطبقة الممتازة من المصريين ، ثم طبقة  
الشعب . وكان حافظ يختلط بالطبقة الأخيرة بحكم فقره وبؤسه وخروجه  
منها ، كما كان يختلط بطبقة المصريين الممتازة ، وهي تلك الطبقة التي كانت  
تفكر في وطنها وفي الحديو وسلطانها ، وفي الترك واستبدادهم وأرستقراطيتهم ،

كما كانت تفكر في المحتل الأجنبي وما يذوق المصريون من بطشه ، وامتصاصه  
لأموالهم ودمائهم ، واعتصابه لديارهم وحررياتهم .

ولم تتسع عند هذه الطبقة النزعة الوطنية فحسب ، تلك التي تجسمت في  
مصطفى كامل وصحبه ، بل اتسعت أيضاً نزعات إصلاحية مختلفة ، فقد  
ذهبت طائفة تفكر في الإصلاح الديني ، على نحو ما هو معروف عن  
الشيخ محمد عبده ودعوته إلى التفكير الحرّ وفتح باب الاجتهاد في مسائل  
الدين . وفكرت طائفة ثانية في الإصلاح الاجتماعي على نحو ما هو معروف  
عن قاسم أمين في دفاعه عن المرأة وحقوقها ، ودعوته الجريئة إلى السفور  
وتبئذ الحجاب . وطائفة ثالثة فكرت في الإصلاح الخلقى والإصلاح العلمي ،  
وقد دعا الشيخ على يوسف دعوة حارة إلى أن يكون التعليم في مراحل المختلفة  
باللغة العربية ، وتأسست الجامعة المصرية القديمة بفضل قاسم أمين وسعد  
زغلول وزملائهما .

وكان حافظ يختلف إلى مجالس هذه الطبقة التي لم تترث امتيازها في الحياة  
المصرية عن طريق آباءها من الترك ، بل استحدثته لنفسها عن طريق علمها  
وثقافتها وجدها وذكائها ، ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه الطبقة هي التي وضعت  
أصول نهضتنا الحديثة .

وكانت هذه الطبقة تفسح لحافظ في مجالسها ، إذ وجدت عنده ما لم تكن  
تجده عند شوقي معاصره الذي لم يكن من الشعب ، بل كان من طبقة  
أرستقراطية ، وكان موظفاً في القصر . أما حافظ فكان من الشعب وكان  
يشعر بكل ما يشعر به ، وكان يطمح إلى ما يطمح إليه طبقة المصريين الممتازة  
من وجوه إصلاح . وكانت فيه فكاهة حلوة وميل إلى النادرة والدعابة ،  
وقدرة بديعة على رواية الشعر .

ولهذه الأسباب مجتمعة قرّب من نفس الشيخ محمد عبده وصحبه الأخيار ،  
وأخذ يحوّل لهم بعض ما يسمعه منهم من نقد سياسي أو اجتماعي أو خلقى أو  
ديني إلى شعر . فكان ينظم أحياناً تدور في مجالس القوم ، يتناول بها هذا

الناظر (رئيس الوزارة) أو ذاك ، يصور فيها ما يجيش بأنفسهم ، ويضطرب في قلوبهم ، ولا يستطيعون أن يذيعوه .

ولم يكن حافظ يختلط بهذه الطبقة من المصريين فحسب ، بل كان يختلط أيضاً بجماعات الشعب الدنياً اختلاطاً لا يقل عمقاً عن اختلاطه بالطبقة الممتازة منه ، فهو يمضى سحابة يومه في المقاهى بباب الخلق والسيدة زينب وحى الأزهر وميدان إبراهيم ، عاكفاً على «الرجيلة» مختلطاً في هذه المقاهى جميعاً بالشعراء والأدباء البؤساء أمثال إمام العبد ، وإن ترك المقهى إلى منزله اختلط بالشعب في طرقاته وفي «الترام» ورأى تحت عينه فقره وبؤسه . ثم ها هو ذا شاعر ، ولا يستطيع أن يعيش في وطنه عيشة كريمة !

وكان الشعراء من قبله ، في العصور الوسطى ، يعيشون في كنف الخلفاء والأمراء ، وكان يوجد دائماً مَنْ يحميهم غوائل الدهر ، أما في هذا العصر فقد تطورت الحياة ، ولم يعد الشعراء يجدون من يقدم لهم الجوائز السنوية على شعرهم ، بل لم يعودوا يجدون من يسد حاجاتهم الضرورية ، واضطروا حافظ وأمثاله أن يهتروا إلى بيوت الكبراء ، لعلهم يدعونهم إلى مواعدهم ، أو لعلهم يأخذونهم معهم إلى بعض مزارعهم ، ليسلّوهم في قطع أوقاتهم هناك ، وهم إن تكرموا عليهم ومدّوا أيديهم إليهم لم يعطوهم شيئاً ذا غناء .

ونتج من ذلك أن كان حافظ بائساً حقاً ، وكان من طبقة الشعب البائسة فنظم كثيراً في بؤسه وشقائه وحرمانه . وليس هذا ما يهمنا ، إنما يهمنا أنه شعر بالآلام شعبه وهمومه . وكم من بائس لم يعدّ ببيؤسه ، لأنه لم يشعر به ، ولأنه يمضى فيه وكأن على بصره غشاوة ؛ أما حافظ فإن اختلاطه بالطبقة الممتازة من المصريين فتح عينيه على فاجعته لا في نفسه وحده ، بل في الشعب كله .

ولعلنا نستطيع الآن أن نفهم كيف كان حافظ شاعر الوطنية المصرية ، فهو يمتزج بالطبقة الممتازة من الشعب التي تشعر شعوراً عميقاً بالأم الأمة ، وتريد أن تُقيلها من عثرها ، وتنهض بها من كبوتها ، في السياسة وغير السياسة ، وهو أيضاً يمتزج بالطبقة العامة من الشعب وتقع عيناه على معارض الشعور فيه كل يوم ، وهي معارض زاخرة باليؤس والتعاسة ، إذ كان هذا الشعب يربّض حيثئذ في أحواض النيل وكأنه يربّض في الطين .

ولم يلبث حافظ أن استشعر في أعماقه محنة أمته بالإنجليز وما ينزلونه بها من ضروب العسف والظلم والتكيل الشديد ، وإنهم ليرمون بأحرارها في غياهب السجون ، بينما يستزفون خيرات بلادهم وينهبون أرزاقهم وأرزاق أمتهم نهباً ، فتحولّ يصلحهم بنيران آياته على شاكلة قوله :

متى أرى النيل لا تحلو مواردهُ      لغير مرتبٍ لله مُرتقب  
 فقد غدت مصرُ في حال إذا ذُكرتُ      جادتُ جفوني لها باللؤلؤ الرطب  
 كأنني عند ذكرى ما ألمَّ بها      قرمٌ تردّد بين الموت والحرب  
 إذا نطقتُ فقاغُ السجنُ متكأ      وإن سكتُ فإن النفس لم تطب  
 أيشكى الفقر غادينا ورائحنا      ونحن نمشي على أرض من الذهب  
 والقومُ في مصر كالإسفنج قد ظفرتُ      بالماء لم يتركوا ضرعاً محتلبِ

فصر بقرة حلوب والإنجليز يعنصرونها ولا يبقون لأبنائها قطرة تروى ظمأ أو تشفى غليلاً ، وإنما يتركون لهم الفقر والشقاء .

ومن المحقق أن حافظاً في أثناء استبداعه ( ١٩٠٠ - ١٩٠٣ ) كان خائفاً من الإنجليز ، وكان لا يزال يترقبهم ولذلك عمد أحياناً إلى مصانعتهم فرثي الملكة فيكتوريا في سنة ١٩٠١ وهنأ خليفته إدوارد السابع بتبويجه في سنة ١٩٠٢

فهو يداورهم ، ويراوغهم ، يجاملهم تارة ، وتارة يحمل عليهم . وما زال في ذلك حتى غلت نفسه بالثورة ، فطلب إحالته إلى المعاش وأجيب إلى طلبه ، وأصبح خالصاً لشعبه بصور آلامه وآماله وما يطمع فيه من حياة كريمة شريفة .

وهو في هذه الفترة الجديدة من حياته (١٩٠٣ - ١٩١١) ينازل المحتل مع شعبه ، ولا يتخلف أبداً عن الركب ، فهو دائماً في مقدمة الصفوف ، يصرخ في وجه الإنجليز مع زعماء الشعب وقادته ، وقد شعر في أعماقه أنه لا بد للأمة من أن تتسلح بالخلق القوى وبالعلم ، فتحوّل شاعراً اجتماعياً كما كان شاعراً سياسياً ، فهو يثير الشعب ويحفزه إلى النهوض ، وهو يحمل على الامتيازات الأجنبية حملات عنيفة . وكانت الحوادث لا تزال تُذكّر في مشاعره الوطنية .

ولم تلبث حادثة دنشواي أن وقعت سنة ١٩٠٦ (١) وذلك أن خمسة من الإنجليز قصدوا إلى هذه البلدة لصيد الحمام ، فتعرض لهم بعض أهلها ، وأصيب ضابط إصابة أدت إلى موته ، فثار اللورد كرومر عميد الإنجليز في مصر ، وعقد المحكمة المختصة برئاسة بطرس غالي ، فقضت بإعدام أربعة من أهل دنشواي شتقاً ، وبجلد سبعة بالسياط ، وبحبس ثمانية مدداً مختلفة . ونُقذ الإعدام والجلد بمرأى ومسمع من سكان البلدة عقاباً وتنكيلاً ، وغضب المصريون وعلى رأسهم مصطفى كامل لهذه الطريقة الوحشية ، وكتب الكُتّاب في الصحف ، وامتلأت النوادي بالخطب والأحاديث في هذه القسوة وتلك الوحشية ، وانطلق حافظ ينشد قصيدته في تلك الحادثة مستهلاً لها بقوله :

أيتها القائمون بالأمر فينسا      هل نسيم ولاءنا والوداد  
خففصوا جيشكم وناموا هنيئاً      وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا

(١) انظر : ( مصطفى كامل ) لهبد الرحمن الراقى طبع مطبعة السعادة ص ١٩٧ وما بعدها .

وإذا أعوزتكم ذاتُ طَوَقٍ  
إنما نحن والحمامُ سواءٌ  
بين تلك الرُّبَا فصِيدُوا العبادا  
لم تغادر أطواقنا الأجيادا

ثم يصف الواقعة وحشية المحاكمة ، فيقول :

جاء جهالنا بأمرٍ وجئتم  
أحسنوا القتل إن ضننتم بغير  
أحسنوا القتل إن ضننتم بغير  
ليت شعري أتلِكُ «محكمة التَّفْ»  
كيف يحلو من القوى التشفى  
إنها مثْلَةٌ تشف عن الغيب  
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم  
ضعفَ ضعفيه قسوةً واشتدادا  
أقصاصاً أردتمُ أم كِيادا  
أنفوسا أصبتمُ أم جمادا  
تيش «عادت أم عهد» نِرون «عادا  
من ضعيف ألقى إليه القيادا ؟  
ظ ولسنا لغيظكم أنداداً  
إنما يُكرم الجوادُ الجوادا

والقصيدة كلها تذهب هذا المذهب من التهكم والسخرية ، محاولا حافظ أن يصور ألم الشعب المصري لهذا البغي والعدوان على أبنائه ، وكيف ينكل بهم المحتل في ديارهم مغلظاً في نكاله . وما يزال يتحدث في هذه المأساة مجسما بشاعة ما كان فيها من شق وجلد ، ويقول في قصيدة أخرى مخاطباً كرومر :

جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا  
شئقوا ولومنيحوا الخيار لأهلوا  
يتحاسدون على الممات وكأسه  
موتان : هذا عاجلٌ متنمرٌ  
طاحوا بأربعته فأردوا خامساً  
حبٌ يحاول غرسه في أنفوس  
فاجعل شعاك رحمة ومودة  
بجبالٍ من شئقوا ولم يتهيجوا  
بلظى سياط الجالدين ورحبوا  
بين الشفاه وطعمه لا يعذب  
يرتو ، وهذا آجلٌ يترقب  
هو خير ما يرجو العمدُ ويطلب  
يُجننى بمغرسها الثناء الطيب  
إن القلوب مع المودة تكسب

ونعجب أن يذكر حافظ حب المصريين هنا ، وأن يستعطف كرومر على هذا النحو ، ولكن في الحقيقة ليس هذا الموقف من كرومر وقومه

موقفه هو ، وإنما كان موقف الطبقة الممتازة من المصريين حيثئذ ، فهى تدارى الإنجليز ، تنقدهم ولكن فى دقة وخوف واحتياط ، وكذلك كان حافظ فهو يثور على الإنجليز ، ولكنه لا يبالغ فى ثورته ، بل لا يزال يداور محتاطاً لنفسه خوفاً من سجونهم وكيدهم وما يمكنون .

ومن هنا لا تتفجر نفسه بنبع نائر ثورة عنيفة ، ومع ذلك فهو أعنف نبع نجده فى هذه الحقبة من تاريخنا ، أى أن عنفه نسبي ، فن حوله من الشعراء كانوا فى الغالب جاثمين فى أصداف الذل ، وقلما صوروا أتين هذا الشعب وآلامه .

على أن الذنب ليس ذنب حافظ وحده ، بل هو ذنب الشعب وقادته ، ممن كانوا يلاينون الإنجليز . وإنما نعتقد لو أن الشعب حاول أن يثور ثورة حقيقية ، وأن يرد بغى المعتدى فى نحره ، لوجد شاعرنا أمامه ، ولما تخلف عنه ، بل لبذل روحه مع الباذلين . ولطالما نعى حافظ على الشعب خموده وركوده ، ولقد حاول بكل ما يستطيع أن ينفخ فى شعوره إزاء مأساة دنشواى ، وأن يذكرى طيب الوطنية فيه ، واسمعه يقول فى وداع اللورد كرومر حين استجابت إنجلترا المشاعر المصريين ، ونقلته من ديارهم :

قتيلُ الشمسِ أورتنا حياةً	وأيقظَ هاججَ القومِ الرُّقودِ
فليت ( كرومرأ ) قد دام فينا	يطوقُ بالسلاسلِ كلَّ جيدِ
ويتحفُ مصرُ آناً بعد آناً	بمجلودٍ ومقتولِ شهيدِ
لنتزعَ هذه الأُكفانَ عنا	ونُبعثَ فى العوالمِ من جديدِ

فهو يتمنى ساخراً لو دام كرومر فى مصر حتى تم للشعب يقظته ، وحتى ينفذ غبار الاستعمار عن عينيه ، ويمجى حياة كريمة .

وحافظ فى هذه القصيدة كعادته يحاور الإنجليز ويداورهم ، ويحتاط معهم ويشفع السم بالعسل ، كأن يقول فى خطاب السير غورست عميد إنجلترا الجديد :

تداركُ أمةً بالشرق أمستُ على الأيام عائرةَ الجلودِ  
وأيدُ مصر والسودان واغتنمُ ثناء القوم من بيضِ سود

فهو يصطنع هذه المداورة قاصداً ، ونحن لا نستطيع أن نقلره قدره الصحيح إلا إذا عرفنا أن بطش الاحتلال كان على أشده ، وأن الإنجليز كانوا يشهرون قانون المطبوعات على رقاب المصريين من زعماء الحزب الوطنى ، وكم أغلقوا من صحف ، وأصلوهم نار بطشهم وظلمهم . واسمعه يقول فى قانون المطبوعات الذى صدر لعهد بطرس غالى ، فكتم الأفواه ، وصادر الصحف ، وكاد يقضى قضاء مبرماً على الحريات :

إن البليَّة أن تباع وتُشترى	مصرٌ وما فيها وان لا تنطقا
كانت تُواسينا على آلامنا	صحفٌ إذا نزل البلاء وأطيقاً
فإذا دعوتُ للمع فاستعصم يكتُ	عنا أسى حتى تغص وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهما	ترمى بها وسوايقاً يوم اللقا
كانت صياماً للنفس إذا غلَّتْ	فيها المموم وأوشكت أن ترهقا
كم تقستَ عن صدرٍ حرٍّ واجد	لولا الصَّام من الأسى لتمزقا
مالى أنوح على الصحافة جازعاً	ماذا ألم بها ؟ وماذا أحدقا ؟
قصوا حواشيها وظنوا أنهم	أمنوا صواعقها فكانت أصعقا
وأتوا بحاذقهم يكيد لها بما	يشنى عزائمها فكانت أحدقا

ثم يتحول إلى شباب الوادى ، فيثير عواطفه ، ويحمسه ، ويهيب به أن يشق طريقه لا إلى السخط على الأجنبي ، بل إلى الثورة :

أهلاً بنابتة البلاد ومرحباً	جددتم العهد الذى قد أخلقنا
لا تياسوا أن تسردوا مجدكم	فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى
مدت له الآمال من أفلاكها	خبيط الرجاء إلى العلا فتسلقنا
فتجشمو للمجد كل عزيمة	إنى رأيتُ المجد صعب المرتقى

من رام وصل الشمس حاك خيوطها  
 عار على ابن النيل سبأق الورى  
 فتدفقوا حجباً وحوطوا نيلكم  
 حملوا علينا بالزمان وصرفه  
 هزوا مغاربها فهابت بأسهم  
 فتعلموا فالعلم مفتاح العلا  
 ثم استمدوا منه كل قواكم  
 وابنوا حوالى حوضكم من يقظة  
 وزنوا الكلام وسدوه فإلهم  
 وامشوا على حذر فإن طريقكم  
 نصبوا لكم فيه الفخاخ وأرصدوا  
 الموت فى غشيانه وطروقه  
 فتحينوا فرص الحياة كثيرة

سبياً إلى آماله وتعلقاً  
 - ميمًا تقلب دهره أن يسببنا  
 فلکم أفاض عليكم وتدققاً  
 فتأنقوا فى سلبنا وتأنقاً  
 يا ويلكم إن لم تهزوا المشرقاً  
 لم يسبق باباً للسعادة مغلقاً  
 إن القوى بكل أرض يتقى  
 سوراً وخطوا من حذار خندقاً  
 خبثوا لكم فى كل حرف مزلقاً  
 وعر أطاف به الهلاك وحلقاً  
 للسالكين بكل فجع موبقاً  
 والموت كل الموت أن لا يطرقتاً  
 وتعجلوها بالعزائم والرقى

فحافظ يريد أن يثور بقومه ، حتى ليطلب إليهم الموت ، وأن يغشوا  
 ميادينه ، فالثورة عارمة فى نفسه ، ولكنه لا يلبث أن ينظر حوله فيجد دون  
 ذلك أهوالاً ، فيعود إلى المداورة والمحاورة ، ويطلب إلى الشعب أن يأخذ حرقه  
 من الغاصب عن طريق الدهاء والحيلة . وهو يشير فى وضوح إلى وزن الكلام ،  
 وإلى العزائم والرقى . وهذا ما كان يأخذ به نفسه ، وما كان صحفيو عصره  
 وكبار قاداته يأخذون به أنفسهم ، فهم يحدرون المستعمر وما له من حول  
 وقوة ، وهم يتأتون له فى كلامهم ، وهو لهم بالمرصاد يبغي أن ينزلقوا أو ينزلوا فى  
 أحاديثهم .

وكل ما نريد من تصويرنا لهذا الجانب هو أن يرسب فى نفوسنا أن شاعرنا  
 لم يكن فى مداروته للغاصب خوَّاراً جباناً ، إنما كان مجسداً لجهاد الأمة حينئذ ،

وما كانت تعتمد عليه في هذا الجهاد من حذر واحتياط ، ولم يتأخر عن الكفاح ولا تخلف عن القادة ، بل ظل معهم تحذوه الوطنية ، ويحدوه الحماس ، حتى إذا نُكبت الأمة بموت زعيمها مصطفى كامل وقف معها يبكيه بكاء حاراً ، وهو في هذا البكاء إنما يصور بكاء الشعب الذي يشعر شعوراً عميقاً بمصابه وآلامه يوم موت مجاهده الكبير . وهو من هذه الناحية شاعر شعبه حقاً ، فقد نبت من تربته الذكية ، ولم تستعر فيه نار عاطفة إلا أضاءت في شعره ، وسمعته يصور ألم هذا الشعب حين مات مصطفى في ريعان شبابه ، وآماله منعقدة عليه :

تسعون ألفاً حول نعشك خُشِعَ	يمشون تحت لوائك السيارِ
خَطَطُوا بأدمعهم على وجه الترى	للحزن أسطاراً على أسطار
آنأ يولون الضجيج كأنهم	ركبُ الحجيج بكعبة الزوار
وتخالطم آنأ لفرط خشوعهم	عند المصلّي ينصتون لقارى
غلب الخشوعُ عليهمُ فدموعهم	تجرى بلا كلجٍ ولا استنثار
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم	ما بين سيلٍ دافقٍ وشرار
أسعى فيأخذني اللهبُ فأثنى	فيصدقني متدفق التيار
لو لم ألدُ بالنعش أو بظلاله	لقضيتُ بين مَراجلٍ وبحار

ولما دار العام دورته أنشد قصيدة في ذكرى مصطفى الأولى لا تقل عن هذه القصيدة حماسة ووطنية ، وفيها يقول :

قد مرَّ عامٌ بنا والأمرُ يحزُّ بنا	آنأ وآونةٌ تنتابنا النقمُ
وللسياسة فينا كلُّ آونة	لونٌ جديدٌ وعهدٌ ليس يحترمُ
بيننا نرى جمراً تخشى ملامسهُ	إذا به عند لَمَسِ المصطفى فحَمُ
ماذا يريدون ؟ لا قرَّتْ عيونهم	إن الكنانة لا يُطوى لها علمُ
كم أمةٌ رَغِبَتْ فيها لما رسختُ	لها - على حَوْ لها - في أرضها قدمُ
ما كان ربُّك رب البيت تاركها	وهي التي بحبالٍ منه تعتمُ

وهذا إيمان بالغ بوطنه . وبمثل هذا الشعر أخذ حافظ مكانة رفيعة بين قومه ، إذ وقع لهم على قيثارته أشجانهم ، وكان لا يزال كلما ألم بهم حادث يفرغ إلى قيثارته ، بغنيهم همومهم وآلامهم .

## ٣

وما زال حافظ على هذه الطريقة بحمس أمته ، ويوقد جنوة الوطنية والآمانى القومية فيها ، حتى وظفه فى سنة ١٩١١ أحمد حشمت وزير المعارف حينئذ رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب المصرية فأصبح رهين الوظيفة ، ولم يعد يترنم بشعره الوطنى إلا فى النادر . وكأنما كانت الوظيفة غُلاً لحافظ ، فأمسك عن الشعر أو كاد ، إلا فى المناسبات العادية .

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الوظيفة وما كفلته من رزق الهته عن قومه ، فلم يعودوا يجدون فيه شاعرهم الوطنى . وقد لاحظنا أنه كان قبل توظيفه لا يزال يداور ذوى السلطان ويحاوهم ، حتى لا يمتحنوه ، وحتى لا ينزلوا به غضبيهم وبطشهم .

فلما أصبح موظفًا غلبه الخوف ، فكتم مشاعره إلا قليلا . وكأنما أقام على نفسه رقيباً . أو قل إنه أقام رقيباً من عقله على شعره ، فلم يدعه ينفث فى العُقْد الوطنىة القديمة حذار ذوى البأس وأصحاب السلطان .

وارجع إلى شعره الذى نظمه فى الورد كرومر فى أثناء حادثة دنشواى وبعدها ؛ ثم انظر فيما نظمه فى السير مكماهون معتمد بريطانيا سنة ١٩١٥ وكان الإنجليز قد أعلنوا الحماية على مصر ، فستجد القرق واضحاً بين اللونين من الشعر ، وستجده فى اللون الأول يتحدث باسم وطنه مع الاعتزاز والشعور بالكرامة ، أما فى اللون الثانى فهو مستخز خزيًا شديدًا حتى لينحرف به القصد ، فيقول :

أئى (مَكْمَهُونُ) قَدِمْتَ بِالْ  
أَوْضَحْ لِمَصْرِ الْفَرْقِ مَا  
وَدَعَ الْوَعْدَ فَإِنَّهَا  
أَضْحَتْ رُبُوعُ النَّيْلِ سَلْ  
فَتَعَهَّدْهَا بِالصَّلَاةِ  
أَنْتُمْ أَطْبَاءُ الشُّعُوبِ  
أَنْتَى حَلَلْتُمْ فِي الْبَلَاءِ  
رَسَخْتَ بِنَايَةٍ مُجْدِكُمْ  
وَعَدَلْتُمْ فَلَكُمْ الْإِلَهَ  
إِنْ تَنْصَرُوا الْمُسْتَضْعَةَ  
أَوْ تَعْمَلُوا لِصَلَاحِنَا  
تَمُودُ الْحَمِيدِ وَالرَّعَايَةَ  
بَيْنَ السِّيَادَةِ وَالْحَمَايَةَ  
فِيمَا مَضَى كَانَتْ رِوَايَةَ  
طَنَّةً وَقَدْ كَانَتْ وِلَايَةَ  
ح وَأَحْسِنُوا فِيهَا الْوِصَايَةَ  
ب وَأَنْبِلُ الْأَقْوَامِ غَايَةَ  
د لَكُمْ مِنَ الْإِصْلَاحِ آيَةَ  
فَوْقَ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْهَدَايَةَ  
دُنْيَا وَفِي الْعَدْلِ الْكِفَايَةَ  
بَيْنَ فَنَحْنُ أَضْعَفُهُمْ نِكَايَةَ  
فَتَدَارِكُوهُ إِلَى النِّهَايَةَ

وهي عثرة وطنية لا شك ، فيها الخوف الشديد ، أو فيها الموظف الخائف  
الرجل الذى يخشى إن دعا لشيء من الثورة أو هيج الخواطر أن يُفصل ، وأن  
يُحال بينه وبين وظيفته وما ترفده به من رزق .

فهو الآن له راتب معلوم ، وهو يحافظ على هذا الراتب ، ولعن الله المادة  
والحاجة ، فإنها هى التى أقصت شاعرنا عن قومه ، فلم يستطع الثبات معهم  
ولا المضى فى مقاومة العدو الغاصب ومن يعاونونه من المصريين .

ورسفت الأمة فى أغلال الحماية ، وانزوى حافظ طولها ، فهو لا يستطيع  
أن يرفع صوته ولا أن يصرخ فى وجه المعتدى إلا أن يستغنى عن راتبه ،  
وهو لا يستطيع أن يستغنى عنه ، بل ما يزال ينتظره فى أول كل شهر لما كان  
يرزح تحته فعلا من ضيق وإقلال .

وتضع الحرب أوزارها وتقوم الثورة الوطنية سنة ١٩١٩ . ويكون طغيان  
المستعمر وبطشه ، وتقوم المظاهرات ، وتنبعث النار الخامدة فى البركان المنطوق ،

فهب الرجال والشباب ، وتنظّم السيدات مظاهرات تحتك بالمختل وجنوده ، ويرى ذلك حافظ ، فتثور نفسه ، ويقول :

خَرَجَ الغَوَانِي بِحَتَجِجَةٍ      نَ وَرُحْتُ أَرْقَبُ جَمْعَهُنَّ  
 فإذا بهن تَخِذْنَ من      سود الثياب شعارهنَّ  
 فظلعنَ مثل كواكبٍ      يَسْطَعْنَ في وسط الدجنَّ  
 وأخذنَ يَحْتَزْنَ الطرِي      قَ وَدَارُ سَعْدٍ قَصْدُ هُنَّ  
 يمشينَ في كنفِ الوقا      ر وقد أبَنَ شعورهنَّ  
 وإذا بجيشٍ مقبلٍ      والخيلُ مطلقَةُ الأعنَّ  
 وإذا الجنودُ سيوفها      قد صَوَّبَتْ لنحورهنَّ  
 وإذا المدافعُ والبنا      دقُ والصوارمُ والأسنَّ  
 والخيلُ والفرسانُ قد      ضربت نطقاً حولهنَّ  
 والوردُ والريحانُ في      ذلك النهار سلاحهنَّ  
 فتطاحن الجيشانُ سا      عات تشيب لها الأجنَّ  
 فتضععُ النسوانُ والنَّ      سوانُ ليس لهنَّ مننَّ  
 ثم انهزمنَ مشتتا      ت الشملُ نحو قصورهنَّ  
 فليهنأُ الجيشُ الفخو      رُ بنصره وبكسرهنَّ  
 فكأنما الألمانُ قد      لبسوا البراقعَ بينهنَّ  
 وأتوا « بهندنبرج » مخ      تفياً بمصر يقودهنَّ  
 فلذلك خافوا بأسه      نَ وأشفقوا من كيدهنَّ

وهي قصيدة محمسة ، فيها تمك وسخرية ، وفيها ما يثير الشباب ، ويلهب ثورتهم ، ولذلك وزعوها في مشوراتهم الوطنية التي كانوا يطبعونها ويذيعونها حينئذ ، ولا تظن أن شاعرنا هو الذي أذاعها ، فإنه كتبها ولم ينسبها إلى نفسه ، ولم يذعها باسمه إلا في سنة ١٩٢٩ .

وما لبث أن رأى الإنجليز يحنون رؤوسهم أمام الثوار المصريين ، وعلى رأسهم سعد زغلول ، فرُدَّت إليه شجاعته ، وأخذ يستعيد عاطفته القديمة نحو بلاده ، وعاد إلى صوابه ، فاندلعت النار الوطنية في فؤاده .

وهكذا هزّت ثورتنا الوطنية نفسه ، وانفلتت أصابعه تتحسس أوتار القيثارة التي كان يوقع عليها شعره الحماسي في السنوات العشر الأولى من هذا القرن . وكان يرى زميله شوقي يتغنى بتاريخ مصر ، وما سطره أبناؤها على صفحة الزمن من مفاخر عنت لها وجوه البشرية .

فامتلات روح حافظ بحب وطنه ؛ وشعر بمكانته التاريخية ؛ وتحقق لديه أن أبناءه سيفكون عن أعناقهم أفعى الاستعمار ، وأنه سينال حريته بعد المناورة والمداورة بل بعد هذه الدماء التي سالت في ثورته والتي كتبت بحروف من نور حقوقه ، وأعلنتها في وجه الغاصب المستبد .

على أنه وقف مدة طويلة موقف حذر واحتياط ، فلم تلعب أصابعه على القيثارة توتاً ، بل لعلها قد جمدت أول الأمر ، فإننا لا نجد في شعره ما يصور الحركة الوطنية حينئذ ، فلا تأليف الوفد المصري سنة ١٩١٨ ولا منسج الوفد من السفر إلى مؤتمر الصلح ولا نقي من تفاهم الإنجليز إلى مالطة ، ولا مشروع ملنر ولا الخلاف بين أعضاء الوفد ، لا شيء من ذلك كله يرتسم في صفحات شعره . ونمضي حتى 'يخفق على رئيس الوزارة المصرية في مفاوضاته مع كيرزن Curzon وزير الخارجية البريطانية ، ويقام حفل له بعد استقالته من الوزارة ، فرى حافظاً ينشد فيه قصيدته التي طارت على كل لسان ، والتي يتغنى فيها بوطنه ، حقيقياً به وبأمجاده ، وسمعها يقول على لسانه :

وقف الخلقُ ينظرون جميعاً	كيف أبني قواعدَ المجد وحدي
وبناةُ الأهرام في سالف الده	ركفتوني الكلام عند التحدّي
أنا تاجُ العلاء في مفرق الشرِّ	ق ودُرَّاتُه فرائدُ عقدي
أى شيء في الغرب قد بهرنا	سَ جمالا ولم يكن منه عندي؟

فترابى تبرٌ وزهرى فُراتٌ      وسمائى مصقولةٌ كالفيرندِ  
ورجالى لو أنصفوم لسادوا      من كهولٍ ملء العيون ومردٌ  
لهم كالظُّبا ألحَّ عليها      صدأ الدهر من ثوآءٍ وغِمدِ  
فإذا صيقلُ القضاء جلاها      كنّ كالموت ما له من مردٍ  
أنا إن قدرَ الإلهُ ممانى      لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى  
ما رمانى رامٍ وراح سليماً      من قديم عنايةُ الله جُنْدى  
كم بغتْ دولةٌ على وجارتُ      ثم زالت وتلك عُقبى التعدى  
لبنى حرّةٌ كسرتُ قيودى      رغم رُقْبى العِدا وقطعتُ قِدى

واستمر يفخر بمصر القديمة وماثرها المسطرة في كتاب التاريخ ، واصفاً ما كان بها من علم وحكمة وتشريع ، وكيف لقنت غيرها من الأمم ، فكانت معلّمة لروما وأثينا . وظل يفخر ببلاده ، مستطرداً إلى تحذير قومه من الغرب وأساليبه الاستعمارية ، وداعياً إلى الوحدة وعدم الفرقة ، حتى يقول :

إننا عند فجرٍ ليلٍ طويلٍ      قد قطعناهُ بين سُهْدٍ ووجْدِ  
غمرتنا سودُ الأهوايل فيه      والأمانى بين جزرٍ ومدِ  
وتجلّى ضياؤه بعد لأى      وهو رمزٌ لعهدى المُستردِ  
فاستبينوا قصدَ السبيل وجِدوا      فالعالى مخطوبةٌ للمُجِدِ

وجدت مصر حتى نالت تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، الذى أعلن انتهاء الحماية البريطانية عليها ، واعترف بها دولة مستقلة ذات سيادة . ولم يُرض هذا التصريح سعدا ، وعارضه من ورائه المصريون ، وبدا الانشقاق واضحاً فى صفوف الأمة ، فهبّ حافظ يقول :

أصبحت لا أدرى على خبيرةٍ      أجدت الأيامُ أم تمزحُ  
أموقفٌ للجيدٍ نجتازهُ      أم ذاك للآهى بنا مسرَحُ ؟

المحُ لاستقلالنا لمعةً  
وتطمسُ الظلمةُ آثارها  
قد حارتِ الأفهامُ! في أمرهم  
فقاتلُ لا تعجلوا إنكم  
وقائلُ أسرف في قوله :  
إن تسألوا العقلَ يقلُّ عاهدوا  
أو تسألوا القلبَ يقلُّ حاذروا  
إني أرى قيئدا فلا تسلموا  
إن هيئوه من حريرٍ لكم  
والرأى كلُّ الرأى أن تُجمِعوا

في حالك الشكُّ فاسترِّوحُ  
فأنثى أنكر ما ألمحُ  
إن لمحوًا بالقصد أو صرَّحوا  
مكانكم بالأمس لم تبَّرحوا  
هذا هو استقلالكم فافرحوا  
واستوثقوا في عهدكم تبرجوا  
وصابروا أعداءكم تفلحوا  
أيديكم فالقيدُ لا يسجِّحُ  
فهو على لينٍ به أفدحُ  
فإنمسا إجماعكم أرجحُ

وحافظ يبدو في هذه القصيدة متردداً، فهو لا يقف جهازاً مع سعد زغلول، بل يداور ويحاور، وما يزال يروى الآراء المختلفة ويقصّ وجوه الرأى، كأنه لا يريد أن يتحمل مسئولية ما يقوله، بل ما يزال يتأني له حتى لا يؤاخذ به ولا يحاسب عليه، ولا تضييع منه وظيفته ولا راتبه، ويدور العام، ويحتفل بعيد الاستقلال، وينهض حافظ فيقول :

اليوم قرئى يا كنانةُ واهدئى  
من ذا يغير على الأسود بغابها

حرمُ الكنانة لم يكن بمباح  
أو من يعومُ بمسبح التماسح؟

ويذكر ما تهباً لمصر من أسباب البرلمان، ويدعو إلى الاتحاد، وأن لا يتخاذل المصريون. ويتجه إلى الشباب، فيهنئه بحريته التي رُدَّت إليه، ويدعوه أن يدفع ثمنها من كفاحه وجهاده وتجنُّم الصعاب، حتى تنال أمته ما ينبغي لها من مكانة مرموقة بين الأمم، وتصبح منيعة عزيزة الجانب. ولا نكاد نجد لحافظ بعد هذه القصيدة شعراً يحمس به الشباب، أو يدفعه

إلى الثورة أو إلى الانضمام إلى حزب دون حزب . ونحن نعرف أن مصر انقسمت إلى حزبين كبيرين : حزب الوفديين برئاسة سعد زغلول ، وحزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلي يكن . ويظهر أنه رأى لنفسه أن يقف على الحياد ، حتى لا يصطدم بشعره حزب دون آخر ، فيخسر أصدقاءه من هذا الحزب أو ذاك .

وأكبر الظن أن حاجته إلى راتبه هي التي أمسكت بلسانه ، واضطرته إلى أن يكون وسطاً ، لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء ، وكأنه رضى بما نالت بلاده من تصريح ٢٨ فبراير كما رضى لنفسه براتبه الذي كان يتقاضاه في دار الكتب ، فلم تستبد به ثورتنا الوطنية إلا قليلاً ، ولم يتحدث في السياسة إلا لكي يكسب رضا جميع المواطنين وثناءهم ، وكأنما جَفَّ معين الثورة التي كانت تضطرم في صدره منذ عشرين عاماً أو ثلاثين ، بما سلط عليها من إفسار الوظيفة .

والحق أن الشعب نفسه وزعماءه هم الذين ألقوا سلاحهم أخيراً ، فلم يعودوا يناهضون الإنجليز ، وألتهتهم الحياة البرلمانية وخلافاتها عن علومهم المشترك ، وجرى معهم حافظ ، فألقى سلاحه ، ونبذ شعره إلا نادراً وفي المناسبات كأن يموت سعد أو غير سعد .

ونمضي إلى سنة ١٩٣٢ وهي سنة إحالته إلى المعاش ، وكان يحكم إسماعيل صدق مصرَ حكماً ظالماً جائراً ، ينكل فيه بزعمائها ، ويستعين عليهم برضا الإنجليز عن سياسته الجائرة ، مدعين أنهم يقفون على الحياد ، وهم في الواقع الذين أقاموه حرباً على أمته ، وهنّأ في كيانها .

وتعصف الثورة بقلب حافظ ، وبخاصة حين يُخلَعُ عنه غُلّ الوظيفة ، وتعنف العاصفة ، فيؤلف أبياتاً ، وينشرها في الصحف ساخراً من حياد الإنجليز ، هازئاً باسم الشعب من أحابيلهم ، بل من جنودهم وأساطيلهم ، على نحو ما نرى في قوله :

حوّلوا النيلَ واحجّبوا الضوءَ عنا      واطمسوا النجمَ واحرمونا النسيما  
واملثوا البحرَ إن أردتم سقينا      واملثوا الجحراً إن أردتم رُجوما

وأقيموا للعسف في كل شبْرٍ  
 إننا لن نحول عن عهد مصر  
 عاصفٌ صان ملُككم وحماكم  
 غال (أمرادة) العدو ففزَم  
 فعلدتم هُنَيْهَةً وبغيم  
 فشهدنا ظلمًا يقال له العَدُو  
 فاتقوا غضبة العواصف إلى  
 (كُنُسُتَبَلًا) بالسُّوط يتقرى الأديما  
 أو ترونا في التُّرْب عظمًا رميا  
 وكفاكم بالأمس خطبًا جسيما  
 وبلغتم في الشرق شأواً عظيما  
 وتركتم في النيل عهدا ذميا  
 لُ وودًا يسقى الحميم الحميا  
 قد رأيت المصير أمسى ونحيا

ونظم قصيدةً تربو على مائة وخمسين بيتا ، يتحدث فيها عن حياد الإنجليز الكاذب وما يسخرون لأغراضهم من « صدق » وحكمه الجائر ، وصَوَّرَ بطشه وخطفه للحريات ، وما صبَّه على مواطنيه من البلاء ، وهو يستهلها بقوله :

قد مرَّ عامٌ يا سعادُ وعامٌ وابنُ الكنانة في حِماه يضامُ

وبسط أطماع الإنجليز ومراميهم من حكومة صدق ، وانصبَّ شواظ نار عليهم مهدداً متوعداً ، مؤمناً بأتمته وزعمائها :

إننا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نَحْيًا ونحن كرامُ

وفيها يقول لصدق :

يا آلهُ للفاستين ودُمِيَّةٌ في قبَضَتِيهَا النَقْصُ والإِبْرَامُ  
 لا همَّ أَحْيٍ ضميره ليدوقها غُصَصًا وتَسَفَ نفسَه الآلامُ

وكانما رجعت إليه غضبته القديمة في عنفوان شبابه ، فقد تحول بقلبه إلى وطنه ، وشاركه في محنته ، وتجسست خواجله في فؤاده ، فتناول قيثارة شعره ، وأوشك أن يزيد في ألحانها أنغامًا ، وفي أوتارها أوتاراً ، غير أن القدر لم يمهل . وبذلك فقدت مصر صداحها الذي شدا بعواظها الوطنية في كثير من الحوادث التي ألت بها منذ أوائل القرن ، إلى أن لبى داعي ربّه .